

التداخل اللغوي وأثره في أفراد المجتمع العربي

د. ليلي صديق

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم (الجزائر)

الكلمات المفتاحية: التداخل - الاحتكاك - التأثير والتأثر - الصراع اللغوي - الاقتراض - الدخيل - المعرب - اللغات الأعجمية - اللهجات.

لقد جاء في أساس البلاغة تعريف لمصطلح التداخل بأنه: "كلّ من دخل في قوم أو انتسب إليهم وليس منهم، يقال له دخيل في بني فلان وهم دخلاء فيهم"⁽¹⁾.

ولا أحد منا ينكر أنّ اللغات تتداخل وتتلاقح كلّما اتّصلت إحداها بالأخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأنّ أيّ لغة من لغات العالم كما تؤثر في غيرها، فإنّها أيضا تتأثر، وإنّ من "المتعذر أن تظلّ لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى"⁽²⁾، ويرى فندريس أنّ تطوّر اللغة مستمر في معزل عن كلّ تأثير خارجي يعدّ أمرا مثاليا لا يكاد يتحقّق في أيّة لغة بل على العكس من ذلك فإنّ الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها، كثيرا ما يؤدّي دورا هاما في التطوّر اللغوي، ذلك لأنّ احتكاك اللغات ضرورة تاريخية، واحتكاكها يؤدّي حتما إلى تداخلها⁽³⁾.

وأهم ناحية يظهر فيها التداخل هي الناحية المتعلقة بالمفردات أين تنشط حركة التبادل بين اللغات ويكثر اقتباسها بعضها من بعض، ولهذا الظاهرة اللغوية عواملها التي يتتبعها الدارسون عبر مسيرة الصراع اللغوي بين اللغات من أجل البحث عن الأسباب التي تجعل لغة ما أكثر انتشارا من لغة أخرى ودرجة صمودها أمام غزو اللغات الأخرى لها.

1- أسباب وعوامل التداخل اللغوي:

وذكر عبد الصبور شاهين أنّ أهم هذه العوامل يتمثّل في الجانب الحضاري والثقافي للغة في التأثير والتأثر بين اللغات، والعامل الثاني هو كثرة الناطقين باللغة⁽⁴⁾.

ويمكن حصر تلك الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى التأثير والتأثر بين اللغات كالآتي:

1- الغلبة في الصراع، والانتصار في الحرب؛ والمقهور مولع بتقليد الغالب، وخاصّة إذا كان للمنتصر حضارة وثقافة ورقي وليس للمنهزم شيء من ذلك "فقد كانت اللاتينية قديما إحدى لغات الفرع الإيطالي من مجموعة (الهندو الأوروبية)، منحصرة في منطقة ضيقة من إيطاليا،

وأصبحت بعد انتصارها في الصراع لغة رسمية لكل من: إيطاليا والبرتغال، وفرنسا، والألب، وألبانية⁽⁵⁾.

2- الهجرة القومية المكثفة، أو الاستعمار الثقيل بقضيضه؛ سبب رئيسي من أسباب التأثير والتأثر وانتشار اللغات.

3- وتأثر اللغات بالاحتكاك عن طريق المجاورة أو التجارة وكذلك أثناء الحروب؛ فالإنجليزية والفرنسية والألمانية والبرتغالية -مثلاً- تتقارض المفردات وتأثرت ببعضها البعض بسبب الحروب التي قامت في أوروبا.

والحروب الصليبية نقلت إلى اللغات الأوربية، كثيراً من الألفاظ العربية قد تعدّ بالمئات؛ وذكر بعض العلماء أن الإسبانية أخذت من العربية أكثر من أربعمئة لفظة في شؤون البحرية وحدها⁽⁶⁾، فضلاً أن المعاملات التجارية قد أثرت كثيراً، ونقلت أسماء الأشياء من المنتجات الفلاحية أو الصناعية التجارية المتبادلة وما يلزمها.

4- والملاحظ أيضاً أن للعلاقات الثقافية والحضارية بين الشعوب أثر عميق في التبادل والتأثير والتأثر بين اللغات في العالم.

كما نجد أحياناً لغتين متعايشتين، ولا تستطيع إحدهما التغلب على الأخرى، ويرجع ذلك إلى عراقية كل منهما في الثقافة والحضارة، أو لقلة الأفراد المهاجرين والفاحين. فاللاتينية مثلاً لم تغلب على الإغريقية، لعراقية الأخيرة في الحضارة، والتركية (لغة الإمبراطورية العثمانية) أبان عظمتها وسطوتها، لم تستطع التغلب على أية لغة في البلاد التي خضعت للإمبراطورية، إذ ليس للتركية حضارة سابقة، فضلاً عن أنهم لم يمتزجوا بأصحاب البلد التي حكموها زماناً ليس بالقصير⁽⁷⁾.

ونتيجة للتعايش بين اللغات يقع التأثير والتأثر بين اللغات المتمثل في اقتراض الألفاظ، فيتسع نطاق اللغة وتزداد حيويتها، وتلك سنة اللغات حين التعايش والاحتكاك والتجاور.

وقد نجد أن اللغة العربية كغيرها من اللغات في العالم عبر التاريخ تداخلت مع اللغات الأخرى حين احتكت واتصلت بالأمم المجاورة بسبب الحروب والمعاملات التجارية والثقافية، فأثرت وتأثرت حسب قانون التجاور والصراع.

2- ظاهرة الاقتراض بين لغات العالم: لقد نتج عن احتكاك الشعوب ببعضها بعض، ظاهرة لغوية التي اصطلح اللغويون المحدثون على تسميتها بالاقتراض، والتي تعد من الوسائل المسؤولة عن نمو اللغة وتطورها ولا تقل قدرًا عن القياس والاشتقاق؛ ولا سيما من حيث الألفاظ،

ولظاهرة الاقتراض نواح متعددة وآثار متشعبة، بعضها مجمع عليه، وليس محل خلاف أو جدال والبعض الآخر لا يزال موضع مدارس واختلاف في المذهب.

كما شبه بعض المحدثين من اللغويين حالة اللّغة بتلك الطبقة العليا من القشرة الأرضية، وهذا ما عرف عندهم بنظرية الطباقية (Substratum theory)؛ فكل طبقة من الطبقات تمثل عنصراً من عصور التاريخ وقد أسس بعضها على بعض، وكذلك حال اللغة في العصور تتكون في هيئة طبقات بعضها فوق بعض، ومؤسس بعضها على بعض؛ فاللغة حين تحل بيئة من البيئات وتستقر فيها تأخذ شكلاً جديداً تستمد جذوره مما سبقها من اللّغات في البيئة نفسها⁽⁸⁾.

وقد نادى بهذه النظرية بعض اللّغويين، وضربوا الأمثال فكان أوضح مثل في كلامهم حال اللغة الرومانية بعد أن استقرت ببلاد الغال (فرنسا قديمة)، وحلت محلها اللغة الكلتية التي كانت سائدة فيها، فوجد أن الرومانية في أرض فرنسا أخذت شكلاً جديداً، متأثراً إلى حدّ كبير بتلك اللغة المندثرة أي الكلتية ولاسيما من حيث الأصوات.

ويدلل إبراهيم أنيس على هذا بقوله: "والدليل على هذا ما نلاحظه الآن من خلاف صوتي واضح بين الفرنسية وشقيقتها الإيطالية والإسبانية، فرغم أن كلاً من هذه اللّغات الثلاث يعتبر تطوّراً للرومانية القديمة، أو بعبارة أخرى تعبّر كل لغة منها صورة حديثة للرومانية القديمة، فقد اتخذت الفرنسية صورة مابينة لما عليها اللغتان الأخريان في نواح كثيرة، وقد كان من المتوقع ألاّ نشهد في كل هذه اللغات الحديث صفات متشابهة أو متقاربة في تطورها عن الرومانية، أو على الأقل أن تكون الفرنسية أقرب شبيهاً بالإيطالية لغة البيئة الأصلية للرومان القدماء، لأن فرنسا تتأخّم إيطاليا وتتأثر بها، غير أنّ الذي حدث فعلاً هو أن الإسبانية الحديثة أصبحت أقرب شبيهاً بالإيطالية من الفرنسية، ويعلل أصحاب هذه النظرية تلك الظاهرة العجيبة بافتراضهم أن الرومانية في أرض فرنسا قد حلت محل الكلتية القديمة وأسست عليها، فتأثرت بكثير من خصائصها، فلم تنقرض الكلتية من الوجود، قبل أن تترك على ألسنة الفرنسيين بعض صفاتها الصوتية"⁽⁹⁾.

وكذلك الحال بالنسبة للغة العربية فقد أثرت في عدّة لغات حين رحلت إلى الأمصار في الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب وغيرها من مناطق وجهات افتتحها العرب بعد انتشار الإسلام، فقد حلت اللغة العربية محل اللغة الأصلية في كل هذه الأقطار ويرى بعض اللغويين المحدثين أن العربية امتازت بحيوية نفاذة متأججة بحيث ظفرت في أيام الفتوحات على اللغتين الآرامية والسريانية بالعراق، وفي إيران انتصرت على اللغة الفارسية وظفرت بها، وفي الشام باللغتين السريانية واليونانية، وفي مصر باللغتين القبطية واليونانية، وفي المغرب باللغتين البربرية واللاتينية، وفي الأندلس

باللغة الإسبانية، وأهل كل هذه البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وغرباً وشمالاً وجنوباً زابت لغاتهم ألسنتهم وحلت مكانها العربية واتخذوها للتعبير عن مشاعرهم شعراً ونثراً وعن عقولهم وألباهم فكراً وعلوماً وسياسياً⁽¹⁰⁾.

فإذا سلمنا بصحة نظرية الطبقات (Substratum theory)، نستطيع في سهولة ويسر أن نعلل تلك الفروق الصوتية التي تميّزت بها كل بيئة من هذه البيئات العربية؛ فالمصري قد يسمع العراقي ينطق العربية حتى ولو كان يقرأ بعض الآيات من القرآن الكريم، فيدرك لتوّه أنّه عراقي، أو على الأقل يدرك أنّ نطقه يخالف النطق المألوف في البيئة المصرية، وكذلك الحال مع الشام والمغرب. وهناك من يتصوّر أنّ ذلك الخلاف الصوتي في النطق بالعربية مرجعه إلى القبائل العربية التي استقرّت في البلاد المفتوحة أثناء وبعد الفتوحات الإسلامية، ولكن يقول إبراهيم أنيس في هذا الشأن: "وليس من المقبول أو المعقول أن نتصوّر أن ذلك الخلاف الصوتي مرجعه إلى لهجات القبائل المختلفة التي حلّت في هذه البلاد، ذلك لأنّ الأسانيد التاريخية تبرهن عن أن القبائل القديمة ذات اللهجة الواحدة قد أقامت في معظم هذه الجهات، ولم يكن من المألوف بين الغزاة من العرب أن تختصّ كلّ قبيلة بقطر من هذه الأقطار أو على الأقل أن يكون معظم من يقيمون في مصر من الأمصار ممّن ينتمون إلى قبائل معيّنة من قبائل شبه الجزيرة"⁽¹¹⁾.

ويذهب "يوهان فك" مذهباً آخر في رأيه حول تأثير لهجات القبائل العربية في لغات الأمصار المفتوحة بعد مجيء الإسلام قال: "كانت هجرة القبائل العربية عقب وفاة محمّد صلى الله عليه وسلم سنة 632/11م، إيذاناً بشروق شمس عصر جديد للغة العربية. ففي مدّة بضع عشرات من السنين حملت قبائل البادية في غزوات الفتح لهجاتها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وبلاد الرافدين حتى جبل طوروس وجبال أرمينية، ونحو الشرق عبر العراق، إلى إيران، ونحو الغرب عبر جزيرة سيناء، إلى مصر وشمال إفريقيا. ولم تمض مائة عام على وفاة محمّد صلى الله عليه وسلم حتى امتدّت الدولة إلى سفوح البرانس في المغرب، وإلى أواسط آسيا على شواطئ نهر الهند في المشرق؛ وهذا التغلغل الذي قامت به اللغة العربية إلى مناطق كانت تستوطنها لغات أخرى، لم يكن ليحدث دون تأثير أو تغيير وإنّه اختلفت نتائج هذه العلاقات الجديدة... ولقد احتفظت كثير من القبائل البدوية في البلدان المفتوحة كذلك، بطريقته حياتها البدوية، وحافظت على سلامة لهجاتها وخلوصها، ولهذا كان لا يزال ممكناً في أوائل العهد العباسي أن يلاقي المرء من جنوبي برتغال في الغرب إلى خراسان في الشرق قبائل عربية، وإن يسمع من أفواهاها عربية بدوية خالصة لا يشوبها هجنة ولا عجمة.

ومن جانب آخر لقد أدى عهد الفتح إلى بثّ روح من القوّة في صميم العربية، وإلى توحيد لهجات البدو أنفسهم... ولم تكن لهجات القبائل البدوية بالجزيرة بعيدة الاختلاف من الوجهة اللغوية... إذ أنّ أغلب الفروق كانت في الأصوات والأبنية والمعاني... ومن تلك الفروق -مثلا- : العننة والكسكسة، وشبيهاتها الكشكشة، أي إبدال السين أو الشين من الكاف، والتثنية، أي كسر حرف المضارعة... فهذه الخصائص اللهجية قد صقلت إلى حدّ بعيد في عهد الفتوحات التي وُحّدت القادريين على حمل السّلاح من مختلف القبائل في التعاون في الجهاد⁽¹²⁾.

ونلاحظ من هذا القول أنّ جميع أفراد القبائل العربية شاركت في الفتح الإسلامي ولم يتأثّر لسانها أو لهجاتها في القرن الأوّل للفتوحات، ويشير روهان فك أن جميع لهجات هذه القبائل التي حملت إلى الأمصار المفتوحة توحدت، ولكنّ ما نسمعه على لسان بعض الناطقين بالعربية خارج حدود الجزيرة العربية الآن هو وجود بعض الظواهر الصوتية التي كانت سائدة في لهجات القبائل العربية القديمة مثل الكشكشة والكسكسة... الخ، ويبقى هذا الموضوع مفتوحا للدارسين والمهتمين باللهجات العربية في إطار علم اللهجات.

وفي السياق نفسه نجد أنّ اللهجات هي أيضا تتأثّر وتؤثّر في بعضها البعض ولو كانت من لغة واحدة؛ وقد خصّ السيوطي (ت. 911هـ) فصلا في مزهره بعنوان "معرفة تداخل اللغات" واستشهد على ذلك بقول طويل لابن جنيّ قال: "إذا اجتمع في الكلام الفصح لغتان فصاعدا كقوله وأشرب الماء ما بي وحدّه عطش إلا لأنّ عيونه سأل وأديها. فقال: نحوه بالإشباع، وعيونه بالإسكان، فينبغي أن يتأمل حال كلامه، فإن كانت اللفظتان في كلامه متساويتين في الاستعمال، وكثرتهما واحدة فأخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت في ذلك المعنى على دينك اللفظين؛ لأنّ العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها، ويجوز أن تكون لغته في الأصل إحداهما، ثمّ إنّه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى وطال به عهده، وكثر استعماله لها، فلحقت لطول المدّة واتّسع الاستعمال"⁽¹³⁾.

ونفهم من هذا النص أن الزمن وانتشار الاستعمال قد يؤثّران في بقاء اللفظ المقترض بين قبيلتين أو أكثر؛ ونستنتج من هذا النص أيضا أن هذا الاقتراض بين اللهجات العربية القديمة ينتج عنه ظاهرة الترادف وكذا الاشتراك اللفظي، والتضاد؛ وهي علاقات دلالية وجدت في القديم نتيجة التأثير والتأثر بين القبائل في السماع والاستعمال للألفاظ فيما بينهم وطول المدّة أي الزمن الطويل في استعمال الألفاظ وانتشار الجغرافي للفظة المستعارة كفل لها الحياة الطويلة والبقاء، أما الألفاظ

التي ضاق فيها الاستعمال وتقلّص مجالها الجغرافي في الجزيرة العربية فقد ضاعت وأهملت وأصبحت في طي النسيان.

كما أضاف السيوطي قولاً للأصمعي مبرّراً فيه هذا التداخل بين اللغات وتأثرها ببعضها البعض قاصداً بذلك اللهجات العربية القديمة، فقال: "والذي يقول يَقْلَى يقول في الماضي قَلِي"، وكذا من يقول سَلَا يقول في المضارع يَسْلُو، ومن يقول فيه يَسْلَى يقول في الماضي سَلِي، فتلاقى أصحاب اللغتين، فسمع هذا لغة هذا، وهذا لغة هذا؟ فأخذ كل واحد من صاحبه ماضيه إلى لغته فتركت هناك لغة ثالثة⁽¹⁴⁾، فتداخل اللغات أو اللهجات قد يكون في البنية الصرفية كما رأينا من خلال النص الأخير للأصمعي.

وتستنتج بما سبق أن كلا من السماع وكثرة الاستعمال وطول الزمن والمجال الجغرافي؛ كلها عوامل تساعد على تداخل اللغات وتأثرها ببعضها البعض؛ والتي ينتج عنها ظاهرة الاقتراض اللفظي أو اقتراض التراكيب بدلا من المفردة وهو الأمر الذي لا يساعد على الحفاظ على النظام النحوي لأي لغة ومن الطبيعي أن كل لغة تحاول الحفاظ على نظامها النحوي الأصلي.

لقد أرجع ابن خلدون سبب تأثير العربية في لغات الأمصار أيام وبعد الفتوحات الإسلامية إلى الدين الإسلامي والسياسة؛ جاء في قوله: "اعلم أنّ لغات أهل الأمصار إنّما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها...، لأنّ الناس تبع للسلطات وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأمم لغاتهم وألستهم في جميع الأمصار والممالك..."⁽¹⁵⁾.

وبضيف أيضا إلى تأثير اللسان العربي المضري وذلك بسبب تفشي اللحن بأنواعه وأشكاله على ألسنة الخاصة والعامة من العرب نظراً للاختلاط الذي وقع بين العربية وألسنة الأعاجم في الأمصار الإسلامية؛ وقد أدرك تلك التغيرات الصوتية والتركيبية في كلام العرب الفصيح وعبر عنه بـ"فساد اللسان المضري" وهي البداية لظهور العاميات الإقليمية في الأمصار الإسلامية، وهي التي أطلق عليها اسم "اللسان الحضري"، وقال: "ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغيّر أواخره وإن كان بقي في الدلالات على أصله وتسمّى لسانا حضرياً في جميع أمصار الإسلام"⁽¹⁶⁾.

ومن الأسباب الاجتماعية والنفسية التي أدت إلى تأثر الألسنة الأعاجم في الأمصار باللغة العربية وهجرهم لألستهم الأصلية هو حبههم الشديد للدين الإسلامي وإقبالهم عليه طوعاً وليس قهراً، فأحبّوا العرب والعربية من خلاله وشهد التاريخ الإسلامي أن حسن معاملة الحكام المسلمين

لهؤلاء الأقوام من الأعاجم أثناء وبعد الفتوحات جعلهم يدخلون في الدين الإسلامي أفواجا أفواجا.

ويضاف إلى ذلك دور الدعاة المسلمين المهم في جلب وتحييب الأعاجم في الإسلام وفي اللغة العربية؛ قال أحمد مختار عمر في إسلام أهل البربر: "لم يكن هؤلاء الدعاة وحدهم السبب في إقبال البربر على الإسلام، فقد كانت القدوة الحسنة والمعاملة الطيبة التي عامل بها الحكام الصالحون رعيته من الأسباب الهامة في تحييب في ذلك الدين الوافد وجعلهم يشعرون بالسيادة والطمأنينة والرضا في ظله"⁽¹⁷⁾.

ولم يكن تأثير العربية منحصراً في الجانب النطقي فقط، بل تعداه إلى الجانب الكتابي أيضاً كما يظهر ذلك في اقتباس بعض اللغات الحروف العربية للتعبير عن لغاتها الأصلية، ونجد هذا التأثير خاصة في البلاد الآسيوية والإفريقية وغيرها نحو اللغة الكردية، والأفغانية، والكشميرية والبنجابية (ولاية بنجاب في شمالي الهند)، والسواحلية (إفريقية الشرقية)... الخ، فقد ذكر رفائيل نخلة البسوكي أن عدد اللغات التي أخذت حروف العربية هو سبع وثلاثون لغة، معتبراً أن تلك العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية قد أفضت حتماً إلى شدة تأثير العربية في تلك اللغات، وقد دخل قاموس سجل منها عدد من الكلمات العربية، بحيث لا تكاد تجد جملة طويلة في تلك الألسن لا تحوي عدّة عناصر عربية⁽¹⁸⁾.

لقد كان للعربية ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي تأثيراً كبيراً في اللغات الأوروبية، استمر طيلة وجودها في الطرف الجنوبي من أوروبا في الأندلس وصقلية وما حولهما من الجزر حتى آخر القرن الخامس عشر ميلادي، إذ كان وجود العربية قد تقلص في تلك البلاد، فإنه ترك بصماته على ألسنة أهلها المتكلمين بالإسبانية، أو البرتغالية، أو غيرها من اللغات المحلية حتى الآن.

وعن تأثير العربية في الإسبانية والبرتغالية، نجد الأب جان دي صوصة (ت. 1842م) قد صنّف "معجم الألفاظ الإسبانية البرتغالية المشتقة من العربية" وحوى هذا المعجم حوالي ثمانية عشر ألف كلمة مشتقة من أصل عربي، في اللغة الإسبانية والبرتغالية⁽¹⁹⁾.

لقد اهتم بعض الباحثين الأوروبيين بدراسة الألفاظ العربية الدخيلة في المعجمات وتتبع تاريخ دخولها فيها، فالكاتب الفرنسي بيير جيرو أقر بتأثير اللغة العربية في اللغة الفرنسية وقدم قائمة من مائتين وثمانين كلمة دخلت من العربية إلى الفرنسية في عصور مختلفة من التاريخ.

كما عني فريق آخر بدراسة هذه الكلمات العربية الدخيلة بإظهار الوسائل والطرق التي دخلت من خلالها إلى فرنسا ولغتها مؤكداً على توثيق تلك المعلومات وإسنادها بالدليل العلمي المتوفر، وقدم قائمة حوت أكثر من ستمائة كلمة.

كما نجد أبحاثاً أخرى ومقالات نشرت في هذا الصدد في غير فرنسا؛ ففي رومانيا مثلاً نجد باحثين أكاديميين مثل: نيكولاي دوبرشان الذي قام بتتبع ودراسة الألفاظ العربية الأصل الدخيلة في اللغة الرومانية عبر التاريخ، فقال في هذا المجال: "دخلت عدّة مئات من الألفاظ العربية اللغة الرومانية بواسطة لغات أخرى، وقد دخل معظم هذه الألفاظ -أي أكثر من 400 مفردة- إضافة إلى مئات أخرى من المشتقات منها في اللغة الرومانية وفقاً لقواعد اللغة التركيبية وفي بعض الحالات ساعدت لغات بلقانية أخرى مثل البلغارية والصربية في عملية انتقال هذه الألفاظ من العربية إلى الرومانية ولا تزال تستخدم في اللغة الرومانية الأدبية المعاصرة ما يقارب مائة لفظة عربية الأصل بصورة عادية، بالإضافة إلى المشتقات منها، كما دخل عدد آخر من الألفاظ بواسطة اللغات الرومانسية؛ الإسبانية والإيطالية وبخاصة الفرنسية، وفي الوقت الأخير بواسطة اللغة الانجليزية"⁽²⁰⁾.

وقد يظن البعض أنّ اللغة الانجليزية كانت بعيدة عن تأثير العربية فيها لأن الجزر البريطانية كانت بمنأى عن موجة الفتح العربي الإسلامي لجنوب أوروبا، وحوض البحر المتوسط، ولكن الغزو العلمي العربي لم يترك مكاناً في أوروبا دون أن يبلغه. وهكذا وجدنا في الانجليزية قدراً كبيراً من الألفاظ ذات الأصول العربية يصل بها بعض الباحثين إلى بعض مئات، دخلت إلى الانجليزية مباشرة أو بالواسطة، ولكن صلة العربية بالانجليزية بدأت متأخرة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي لمدة خمسة قرون على الأقل بعد ذلك⁽²¹⁾.

وللألفاظ العربية طبيعة الصوت المتغلغل في الأثير، فمن لغة الأسبان والترك والروم إلى سائر اللغات الأوروبية، وبعد حيز من الزمن تعود إلينا هذه الألفاظ العربية كالطيور المهاجرة إلى مواطنها، ولكن بعد أن تغير من ألوانها، وأطواقها وأجراسها وأصواتها، وكأنّها يقودها إلينا دافع الحنين إلى الوطن في البلاد العربية.

فلظاهرة الاقتراض بين اللغات هو أمر أجمع عليه علماء اللغات، ولم يحتج منهم أي دليل للبرهنة على وقوعه في العصور القديمة أو الحديثة، واستعمال لفظ "الاقتراض" في هذه الظاهرة ليس إلّا من قبيل التجوّز، أو المجازاة لاصطلاح اللغويين المحدثين، فليس اقتراض الألفاظ اقتراضاً

بمعناه الدقيق بل ينتفع بها كل من اللغتين، وليست اللغة المستعيرة مطالبة برد ما اقترضته من ألفاظ اللغات الأخرى⁽²²⁾.

فما يسمى "اقتراض الألفاظ" ليس في الحقيقة إلا نوعاً من التقليد، مثله كمثّل تقليد الطفل للغة أبويه أو الكبار حوله غير أنّه تقليد جزئي يقتصر على عناصر خاصة، في حين أن تقليد الطفل للغة أهله تقليد كلي يتناول كل ما يسمع من ألفاظ⁽²³⁾.

واقتراض الألفاظ عمل يقوم به الأفراد كما تقوم به الجماعات، وفي العصور الحديثة قد تقوم به الهيئات العلمية كالمجامع اللغوية وأمثالها على أن عمل الفرد هنا لا يظل عملاً منعزلاً عن الناس، بل رغم أنه يبدأ العمل فردي لا يلبث في غالب الأحيان أن نقلده مجموعة من الأفراد وينتشر بالاستعمال، ثم يصبح ملكاً للجماعة كلها ويكون حينئذ عنصراً من عناصر اللغة المستعيرة.

وفي أغلب الأحيان يكون اقتراض الألفاظ وليد الحاجة حيناً، أو الإعجاب حيناً آخر. وينظر المرء عادة إلى لغته على أنها ملك له ومن حقه أن يزيد عليها ما يشاء من الألفاظ اللغات الأخرى...، ولهذا نلاحظ أن المرء وهو يتكلم بلغة أهله وبيئته قد يقحم في كلامه بعض الألفاظ الأجنبية، في حين أنه في أثناء كلامه بلغة أجنبية لا يسمح أبداً باقتباس شيء من ألفاظ لغته، خشية أن يعد هذا مظهراً من مظاهر العجز، أما في الحالة الأولى فيشعر المرء عادة أن اقتباس للفظ الأجنبي وإقحامه في كلامه مظهراً من مظاهر الكمال والافتخار⁽²⁴⁾، فنلاحظ أن من دوافع اقتراض الألفاظ هو الجانب النفسي والعقلي للفرد أو الجماعة أثناء استعمال اللغة.

بل ولقد لوحظ أن بعض الكتاب والأدباء ممن تعلموا لغة أجنبية فأتقنوها وأصبحوا يكتبون بها في بعض الأحيان، يقتضون ويستعبرون الألفاظ الأجنبية في أثناء كتاباتهم بلغة آبائهم وأجدادهم، ثم لا يكادون يسلكون المسلك نفسه في الكتابة بتلك اللغة الأجنبية⁽²⁵⁾.

وقد كان هذا واضحاً بين مؤلفي الفرس في العصور الإسلامية، ممن أتقنوا العربية مع لغتهم، فكتبوا بهذا حيناً وبتلك حيناً آخر، فقد لوحظ أن كتبهم المؤلفة بالفارسية مشحونة بكلمات عربية وليس العكس⁽²⁶⁾، ومن الصعب جداً الكشف عن المصدر الأول أو المسؤول الأول في هذا الاقتراض اللفظي، فلا نكاد ندري إلا في النادر من الحالات من هو أول شخص استعار لفظاً معيناً نظراً لنقص الدلائل التاريخية أو الأدلة الشفوية التي تثبت ذلك.

والمرء حين يقتض لفظاً أجنبياً، ويستعمله في كلامه أو في كتاباته يحاول عادة أن يصيغ ويشكل ذلك اللفظ حسب عاداته النطقية وعلى حسب قواعده اللغوية حتى يصبح على نسج

لغته؛ سواء من ناحية الأصوات أو من ناحية الصيغ، وتساعد هذه العملية على شيوع اللفظ الأجنبي بين أفراد البيئة لسهولة تناوله حينئذٍ والنطق به.

ولهذا كانت الكثرة الغالبة من الألفاظ المستعارة في كل اللغات تتخذ شكلاً مألوفاً في اللغة المستعيرة ومن النادر جداً أن يبقى اللفظ المستعار على حاله دون تغيير في أصواته أو صيغته، ولا يتم هذا في غالب الأحيان إلا حين يثق المستعير بقدرته على نطق اللغة الأعجمية، وحين يرغب في إظهار مهاراته بين أفراد بيئته، فكلما تمكن المرء في معرفته اللغة الأجنبية، مال إلى عدم التغيير في ألفاظها المستعارة أو التبديل من مظهرها.

هوامش البحث:

- ¹ - الزمخشري: أساس البلاغة، مادة (دخل).
- ² - رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة، ص 258.
- ³ - ينظر: فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص 34.
- ⁴ - ينظر: عبد الصبور شاهين: دراسات لغوية - القياس في الفصحى والدخيل في العامي -، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1986، ص 226.
- ⁵ - د. توفيق محمد شاهين: علم اللغة العام، أم القرى، 1980، ص 129، 131.
- ⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص 131.
- ⁷ - توفيق محمد شاهين: علم اللغة العام، ص 131.
- ⁸ - ينظر: د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 8، 2003، ص 91.
- ⁹ - د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 91-92.
- ¹⁰ - ينظر: سعيد بيومي: أم اللغات، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت)، ص 36.
- ¹¹ - د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 92.
- ¹² - يوهان فك: العربية - دراسات في اللغة واللهجات والأساليب -، مكتبة الخانجي، مصر، 1980، ص 18-19.
- ¹³ - السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 262/1.
- ¹⁴ - السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 263/1-264.
- ¹⁵ - ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، ط 9، 1989، ص 379.
- ¹⁶ - ابن خلدون: المقدمة، ص 379.

-
- ¹⁷ - أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة في مصر والمغرب، عالم الكتب القاهرة، (د.ت)، ص 246-247.
- ¹⁸ - ينظر: رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللّغة العربية، بيروت، 1960، ص 124-125.
- ¹⁹ - ينظر: سعيد بيومي: أم اللّغات، ص 164 وما بعدها.
- ²⁰ - د. نيكولاي دوبرشان: تطور دلالات الألفاظ العربية الأصل في اللغة الرومانية، المجلة العربية للثقافة، تونس، العدد 28 شوال 1415هـ، مارس 1995م، ص 171.
- ²¹ - ينظر: عبد الصابور شاهين: دراسات لغوية، ص 229-230.
- ²² - ينظر: إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 97.
- ²³ - ينظر: نفسه.
- ²⁴ - إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص 98.
- ²⁵ - نفسه.
- ²⁶ - نفسه.